ملخص التقرير

المقدم للمؤتمر العالمى للصحة العقلية الذى يعالج موضوع

« الصحة العقلية والمواطن العالمى »

Mental Health and World Citizenship; a statement prepared for the International Congress of Mental Health, London, 1948.

بقلم

كمال الدين عبد الحميد نايل

مدرس الفلسفة بمدرسة شبين الكوم الثانوية

يعالج هذا التقرير المشكلة الآتية : هل فى إمكاننا عن طريق تطبيق مبادئ الصحة العقلية أن ننجح فى تكوين « المواطن العالمى » ؟ وللبحث فى إمكانية هذا الاقتراح ، اجتمع فى Roffey Park فى مقاطعة Sussex أربع وعشرون شخصاً يمثلون المهن المختلفة ، قادمين من عشرة أقطار مختلفة فى المدة الواقعة من ٢٤ يولية إلى ٨ أغسطس ١٩٤٨ للبحث فى المسائل الآتية : هل فى إمكان الشعوب أن تتعلم كيف تتعاون فى سبيل صالح وخير المجموع ؟ وعلى أى الأسس يمكن أن تأمل الشعوب فى سلم دائم يزول معه شبح الحروب ؟

ولقد بحثوا هذه المسائل والمشاكل المرتبطة بها من وجهة النظر التى تجمع بين شتى العلوم الاجتماعية كعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الانثروبولوجيا . وكان فى متناول هذه الجمعية تقارير أعدتها ٣٠٠ لجنة تحضيرية يبلغ عدد أعضائها ٥٠٠٠ عالم اجتماعى كانوا يعملون خلال العام الماضى فى سبعة وعشرين قطراً تمهيداً للمؤتمر الدولى للصحة العقلية .

وسنعرض الآن خلاصة التقرير الذى رفعته اللجنة التحضيرية الدولية : « كشفت

دراسة التطور الإنسانى عن قابلية السلوك الإنسانى للتعديل أثناء الحياة : فى الطفولة المبكرة ، والطفولة والبلوغ من اتصال الإنسان واحتكاكه بالأفراد الذين يتعامل معهم ، ولقد أفضى البحث الدقيق للنظم الاجتماعية ، فى كثير من البلدان ، عن إمكان تعديل هذه النظم الاجتماعية . وإدراكنا الجديد لإمكانية تعديل كل من السلوك الإنسانى والنظم الاجتماعية يمكننا من تحسين العلاقات بين الشعوب بعضها وبعض كما أنه يمكننا كذلك من العمل على إطلاق الإمكانيات الكامنة الفعالة عند الإنسان ومن توجيه النظم الاجتماعية توجيهاً يتحقق معه الخير العام للإنسانية بأسرها .

ولقد كان للعلوم الاجتماعية وعلم الصحة العقلية الفضل الأكبر فى معرفتنا وتفهمنا للعقبات التى تحول دون تقدمنا فى المسائل الإنسانية . ومن الأمور المفروغ منها أن الفرد يتأثر بالمجتمع ويؤثر فيه . ومن المعروف أيضاً أن النظم الاجتماعية كالعائلة والمدرسة ... الخ تطبع أفرادها بطابع خاص منذ طفولتهم وهؤلاء الأفراد يورثونها لأطفالهم الأمر الذى يترتب عليه استمرار ودوام هذه النظم . فهؤلاء الرجال الذين شكلوا على أنظمة معينة ونماذج معينة فى التفكير والسلوك يقاومون أى تغير أو تحول للنظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى ألفوها . وعلى هذا النحو ، تتأصل فى نفوس الأفراد التعصب والعداء لكل ما هو غريب عنهم ، ويتشربون فكرة التعصب الوطنى المتطرف لوطنهم وتقاليدهم .

ولعل أهم الأفكار التى ساهمت بها العلوم الاجتماعية وعلم الصحة العقلية توجيه النظر إلى مرونة السلوك الإنسانى وقابلية النظم الاجتماعية للتغيير والتعديل وإلى المقاومة التى يبديها كل من الفرد والمجتمع إزاء أى تغير يلحق بالأفكار وبالنظم التى اعتادها وألفها ، كما نبهت الأذهان إلى وجوب مراعاة المراحل التى تمر بها الشخصية فى تكوينها ونموها لكى تكون جهودنا موفقة فى تغيير السلوك الإنسانى وتوجيهه الوجهة الكفيلة بتحقيق التعاون بين أفراد الجنس البشرى ، وإلى وجوب إعداد الجماعات لتقبل التغيير والتعديل .

وخلاصة القول أن مبادئ الصحة العقلية لا يمكن أن تستمر بنجاح فى أى مجتمع ما لم يكن هناك تقبل لفكرة « المواطن العالمى » ويمكن أن تعمم فكرة المواطن العالمى عن طريق تطبيق مبادئ الصحة العقلية . وتتضمن هذه الفكرة الإخلاص للإنسانية جميعها .

وهذا الفهم الجديد « للإخلاص » لا يتطلب أى صراع لضروب الإخلاص التقليدية للعائلة والجماعة والوطن بل الأحرى أن يقال أنه يحتويها لأنها وحدها لم تعد كافية لحماية العلاقات المتبادلة التى تربط بين الشعوب بعضها والبعض الآخر .

ويهدف المؤتمر إلى الأهداف الآتية : جمع ممثلى المهن التى تهدف إلى رفع مستوى رفاهية الإنسان جاعلا هدفه تحديد وتعيين الشروط التى تمكن كل رجل وامرأة وطفل من الارتفاع بقيمته وكرامته . ويرمى المؤتمر ثانياً إلى توجيه الفروع المختلفة التى تعنى بما يعالجه من مشاكل كمنظمة اليونسكو — إحدى منظمات هيئة الأمم المتحدة — إلى أبحاثه وقراراته خاصة منظمة الصحة العالمية التى أصبحت تؤمن الآن بأن الصحة بمظاهرها الجسمية والعقلية والاجتماعية وحدة لا يمكن أن تنفصل . ويرمى المؤتمر ثالثاً إلى تشجيع النشاط المطرد للمنظمات المعنية بالصحة العقلية فى شتى الأقطار مراعية فى ذلك أن المجتمعات المختلفة ستكشف عن أشكال مختلفة من الاستعداد لفهم وتقبل المعرفة الجديدة ؛ وأن هناك أشكالا مختلفة من الوسائل للاتصال والتعامل متدرجة من المستوى المحسوس إلى الأكثر عموماً وتجريداً .

هل من الممكن عن طريق الصحة العقلية أن نحقق فكرة « المواطن العالمى » ؟ يرى واضعوا هذا التقرير أن الجامعة العالمية شرط أساسى للصحة العقلية . فى عالم مهدد بالدمار قلّ من يستطيع أن يتجنب الشعور بالقلق وعدم الطمأنينة . ومن جهة أخرى لا يمكن أن توجد جامعة عالمية حتى يتعلم الأفراد والجماعات كيف يعيشون فى سلام مع أنفسهم ومع بعضهم البعض وحتى يكفوا عن النضال أو الصراع فى سبيل تماسكهم الاجتماعى على أساس من الشعور بالعداء والعنت نحو الآخرين . فلا سلام بدون صحة عقلية ، وفى الوقت نفسه لا صحة عقلية بدون سلام » فهل هناك مخرج من هذا الإشكال ؟ وهناك إشكال آخر وثيق الارتباط بالأول ألا وهو معرفتنا بمرونة السلوك الإنسانى الأمر الذى يترتب عليه أن نأمل شيئا من وراء هذه المرونة ، وفى نفس الوقت نعرف إلى أى حد يمكن أن يشكل المجتمع هذه المرونة بالصورة التى يريدها ويودها . فمن المعروف أن هناك تفاعلا مستمراً بين الراشدين والمجتمع عن طريق مشاركة الراشدين فى الحياة الاجتماعية مما يؤدى إلى امتصاصهم لنماذج التفكير والسلوك السائدة فى مجتمعهم وتورثها لأطفالهم . ومن المحتم أن يغير هذا السلوك بجميع أشكاله المتنوعة إذا ما أردنا تدعيم الثقة بهذه الفكرة الجديدة : فكرة المواطن العالمى .

وهنا يحق لنا أن نتساءل عن الطريقة التى يمكننا بها إعداد الناس لتعلم الاتجاهات المؤاتية الضرورية التى تؤهلهم لأن يكونوا أعضاء فى الجامعة الإنسانية وعن الوقت المناسب لإعدادهم لقبول هذه الفكرة . وبعبارة أوجز متى يحق لنا أن نتدخل ؟

ولكن المشكلة لم تستوف بعد حقها من البحث . فمن المعروف لدينا أن النظم الاجتماعية ونماذج السلوك تتغير دواماً ، فهى تتغير بتأثير الإنسان كما يتغير الإنسان معها أيضا . وهذه التغييرات تكون أحيانا بطيئة وأحيانا أخرى سريعة ولكنها لا بد واقعة . وفهمنا لطبيعة عملية التغير ربما يجعل من السهل علينا أن نتدخل إلى حد ما فى توجيهها إلى ما هو أجدى على الإنسانية .

ومقدرتنا على تبيان طرق التدخل يعتمد على معرفتنا للأسس التى تتم بها عملية التعلم . ولكن كيف نوافق بين نظم التعليم هذه بالنسبة لشعوب تختلف فى تراثها الاجتماعى ؟ وفى أى طبقات المجتمع ، وبين أى جماعة من المسيطرين على توجيه سياسة الشعوب يمكن أن نركز خبرات التعلم الجديدة ؟ ونحن نعرف فى ميدان علم النفس قدراً كبيراً عن كيفية تعلم الأطفال لاتجاهات العداء والتعاون وكيف تنمو لديهم فكرة الإخلاص للوطن الضيق — أى وطنهم الذى يعيشون فيه — والوطن العالمى — أى الجامعة الإنسانية . ولقد بدأنا نكتشف الحقيقة الآتية أن الراشدين يتأثرون بخبرات الطفولة فى مستقبل حياتهم ، فإذا ما أحسنا التوجيه فى هذه الفترة وغرسنا فى نفوس النشء الاتجاهات التى تجعل منهم مواطنين صالحين . ففترة الطفولة هى المجال الخصب لغرس هذه الاتجاهات التى تعيننا على خلق جيل جديد يؤمن بهذه الفكرة الجديدة .

بيد أن الأمور ليست من السهولة كما نظن ، فإن علينا أن نصطدم بكثير من العقبات . وأول هذه العقبات هى تلك الصورة المشوهة المطبوعة فى أذهان الشعوب عن العالم الخارجى نتيجة للتعصب بصوره المختلفة . فقد اعتاد أفراد كل أمة على التفكير بصورة معينة تكاد تصل إلى درجة الجمود الأمر الذى يترتب عليه أن تتكون لديهم أشكال نمطية متحجرة فى التفكير والسلوك بحيث يصعب عليهم تغييرها أو تحويرها . فكثير من المجتمعات قد اصطلحت على طريقة معينة فى التفكير والسلوك وتحاول بشتى الطرق أن تغرس فى نفوس مواطنيها هذه الاتجاهات مما يؤدى إلى قدر كبير من التعصب وإلى محاربة أى محاولة ترمى إلى التغيير من هذه الاتجاهات ونبذ كل من تسول له نفسه تغيير هذه الأنماط والاتجاهات المتواضع عليها .

وقد يكون فى هذا الاتجاه المحافظ ما يحفظ على الدولة تماسكها وطابعها الذى يميزها عن غيرها إلا أنه مضر لأنه يحول دون فرص التقدم والتغير . وظاهرة التكتل فى الجماعة قد تصل إلى ذروتها فى الاتجاهات الوطنية المتطرفة من حيث أنها تفضى إلى التميز بين الجماعات البشرية وتؤدى إلى نوع من التعصب قد يصل إلى حد الاحتكار التجارى بل والعلمى أيضا !

وهناك عقبات أخرى : كالاعتقاد بأن الحرب أمر حتم لا سبيل إلى الفرار منه ؛ وكالدعاوى العريضة التى ينادى بها شعب من الشعوب ليثبت تقدمه على ما عداه من سائر الشعوب ومحاولته الحط من قيمة الشعوب الأخرى ؛ والمخاوف والشكوك التى يعانيها أفراد شعب من الشعوب مما يؤدى بهم إلى أن يهيبوا بسلطة قوية تحقق لهم ما يفتقرون إليه من طمأنينة وسلام فى نفوسهم ! كل هاتيك الأسباب تحول دون تحقيق فكرة « المواطن العالمى » . وتساعد على وقوع الحرب .

ومواجهة هذه المصاعب عمل يتطلب القدر الكبير من الأهمية . فنلاحظ أولا أن مشكلة المواطن العالمى فى علاقتها بالوجود الإنسانى فى حاجة إلى أن تصاغ من جديد فى ضوء المعرفة الجديدة للنزعات العدائية عند الإنسان والأسباب التى تفضى إلى حدوث التوترات النفسية فى داخل الجماعة وإلى التعصب القائم على الجنس والعاطفة الوطنية والأشكال النمطية المتحجرة التى تسود عند شعب من الشعوب فى مجالات التفكير والسلوك .

وإذا كنا الآن بصدد نقطة تحول عظيم فى تاريخ الإنسانية فمن الحتم على العلماء الاجتماعيين ورجال الصحة النفسية أن يحاولوا هذه الصياغة الجديدة وأن يجدوا فى سبيل تحقيقها .

وينبغى علينا أن نصرف النظر عن التعصب الساذج الناجم عن الأمور السياسية وعلى العلماء الاجتماعيين ورجال الصحة النفسية أن يبذلوا قصارى جهدهم فى استخدام معلوماتهم وآرائهم فى خدمة الإنسانية فى هذا الوقت العصيب ، كما أن عليهم أيضا أن يتحققوا أيضا أن كل مساهمة أو عمل فى هذا الميدان لا يراعى أثر العوامل الاقتصادية والسياسية فى هذا الصراع مقضى عليه بالفشل. ولقد تقدمت بحوث علم النفس فى موضوع « التعلم » وبالطرق التى يتقبل بها الأفراد رأياً من الآراء أو اتجاها من الاتجاهات أو العوامل التى تدفع الأفراد إلى معارضة ومحاربة أى اتجاه . ولقد بينت الدراسات التجريبية فى هذا الميدان ظهور اتجاهات أكثر صداقه وتعاوناً

نحو الشعوب الأخرى فى المعاهد التى تعنى بدراسة العلاقات الدولية ، وكيف تؤدى الاتصالات التى تقوم على أساس من المساواة والتعاون إلى خلق جو من التعاون ؛ وكيف نخلق الاجتماعات والحلقات التى يتنافس فيها رجال من مختلف الجنسيات حيث يتحدث كل منهم عما يخالجه من المخاوف والشكوك إلى خلق جو من التفاهم ؛ فإن مثل هذه الاجتماعات بمثابة « اجتماعات علاجية » . Group Therapy ينفس فيها أفراد كل أمة من الأمم عما يساورهم من قلق .

وهناك نفر كثير من العلماء يؤمن إيماناً قوياً بأن العالم يسير سيراً حثيثاً نحو تحقيق فكرة المواطن العالمى

وهناك من الدلائل الموجودة الآن ما يبعث على الأمل فى تحقيق هذه الفكرة . فالتعاون الذى يحدث بين الشعوب المختلفة إذا ما أصاب أحدهم مجاعة أو حلّ بهم وباء ، وفكرة اتحاد البريد العالمى ، والتبادل العلمى والثقافى ، كل هذه المظاهر تنطق بإمكانية تحقيق هذه الفكرة . وإن الاتصال الوثيق بين الأمم نتيجة لتقدم وسائل المواصلات الجوية وانتشار التيارات الثقافية المختلفة لهو من أكبر العوامل المهيئة لتقبل هذه الفكرة .

والمنظمات الدولية كمنظمة اليونسكو وغيرها من المنظمات الأخرى لدليل ناطق على إمكانية تحقيق هذه الفكرة . وبالإضافة إلى ذلك كله ، فإننا نشعر بنزعة مطردة بين العلماء الاجتماعيين ورجال الصحة النفسية والعلماء نحو الاتجاه العالمى الذى يتخطى الحدود الجغرافية المرسومة .

ولا ينبغى أن نغفل عن ذكر الرجال والنساء الذين تبنوا الأطفال اليتامى الذين خلفتهم الحروب . فهؤلاء مواطنون عالميون بالمعنى الكامل !

ولكن التفاؤل أمر غير مستحب فى اللحظة الحاضرة ، فإن أمامنا الكثير من المصاعب . ولكن علينا فى نفس الوقت أن نميز تمام التمييز بين عمل صعب يحتاج إلى الكثير من الجهد وعمل مستحيل .

والغاية القصوى التى ينشدها علم الصحة العقلية هو أن يعيش الإنسان فى سلام مع نفسه ومع الغير .

كمال الدين عبدالحميد تايل